

1917-2007 دفاع نقدي عن الثورة الروسية

الخميس 8 تشرين الثاني (نوفمبر) 2007

يوم 25 أكتوبر 1917 – 7 نوفمبر في الواقع، بفعل التقويم الشهري في روسيا آنذاك – دخل العالم عصرا جديدا. قبل تسعين عاما نهض مستغلو روسيا ومضطهدوها من أجل التحرر من قيود الرأسمالية وبقايا الملكية المطلقة الروسية نصف الإقطاعية. كانت هذه الثورة حدثا رئيسيا في تاريخ البشرية. ثورة يتوجب علينا إن نعود إليها بنفس المنهجية التي أورثها لنا ماركس: منهجية التحمس لكل ما يتيح إنماء قدرة الإنسانية على التحرر من كل أشكال الاضطهاد والاستغلال، والصرامة والنقد الشرس لكل ما يكبحها عن بلوغ هذا الهدف أو يبعدها عنه.

لقد فتحت الثورة الروسية، أول ثورة اشتراكية ظافرة، حقبة تاريخية واسعة انغلقت اليوم. لكن أحداثها ودروسها تظل أساسية لمن يُحسن استخلاصها، لا لفهم " القرن العشرين القصير" وحسب، بل حتى فهم عالم اليوم الناشئ منه. لم يعتبر تيارنا الثورة الروسية أبدا "نموذجا" للنسخ الحرفي، لكنها مع ذلك معين غير ناضب وخصب من التجارب والمحاولات الناجحة أو المجهضة لمواجهة بعض التحديات الثورية التي ستطرح دوما أيا كان السياق التاريخي.

يتوجب علينا أن نعثر من جديد، تحت الأنقاض الخاملة لانهايار الاتحاد السوفيتي، على ما يمثله أكتوبر من اندفاع مُحَرَّر، قائم على المساواة والشهامة، ككل الانتفاضات الشعبية الحقيقية في التاريخ. قام المقهورون والمستغلون والمضطهدون "باقتحام السماء"، وبعثوا رسالة كونية ملؤها الأمل والأخوة. سار هذا النداء على بساط الحرب العالية الأولى و" هز العالم."

أحدثت ثورة أكتوبر اندفاعا من الإبداع والتخيل العمالي والفني، بروسيا وبغيرها من العالم. وأتاحت تجارب جريئة في تغيير نظ الحياة. ونهضت إلى محاربة اضطهاد النساء. وأعلنت مبادئ موجه للاشتراكية وطبقته أحيانا على نحو متماسك. وكما كتب المؤرخ مارك فيرو، البعيد مع ذلك عن التعاطف مع الثورة: "انبجست صرخة أمل هائلة من أعماق روسيا: امتزجت بها أصوات كافة النساء وكل المهانين. كشفوا معاناتهم، وآمالهم، وأحلامهم. وعاشوا، كما في حلم، لحظات لا تُنسى. كان عمال في موسكو يجبرون رب عملهم على تعلم أسس القانون العمالي المقبل، و كان الطلاب في أوديسيا يملون على أساتذتهم برنامجا جديدا لتاريخ الحضارات. وكان الممثلون في بتروغراد يقومون مقام مدير المسرح، ويختارون المسرحية المقبلة، و كان الجنود بالجيش يدعون المرشد لحضور اجتماعاتهم "كي يمنح حياته معنى". وحتى الأطفال طالبوا " بحق من يقل عمرهم عن 14 سنة في تعلم الملاكمة لإسماع الكبار صوتهم." (انه العالم مقلوبا). 1)

كانت سنوات النظام الثوري الأولى تعبيراً عن هذا الأمل، وهذا الاندفاع، الذي يقرب العالم كي ينصبه على رجليه. وكانت نقیضا للصور الكاريكاتورية التي صنعها المؤرخون والإيديولوجيون البرجوازيون الذين يمثلون موضحة حاليا. يرى هؤلاء أن الصلة بين لينين وستالين، وبين سنوات الثورة الأولى " وتوطدها تحت ستالين" أمر بديهي. ليس هذا الخلط بريئا. انه ينبع من إرادة تحطيم و تحقير أمل ثورة أكتوبر و حقيقتها، ومن ثمة كل ثورة، بإلقاء جريرة جنون الستالينية الإجرامي والكارثي على ذلك الحدث. لكن الستالينية كانت نقیضا، كانت ثورة مضادة بيروقراطية، وهذا ما لا يُقال كفاية. وتيارنا الذي كان من السباقين إلى التنديد بتلك الجرائم عانى من جراء ذلك في زمن كان متفقو الموضحة يتملقون " أب الشعوب الصغير."

لكن الدفاع عن ثورة أكتوبر لا يعني بأي وجه التعامي عن الصفحات المعتمدة من سنوات النظام السوفيتي الأولى. فدون إنكار الفروق النوعية، يجب ألا يحجب النضال الشديد من أجل الحقيقة التاريخية ضد التأويلات السائدة الوقائع القابلة للنقد في أصول السلطة الثورية الجديدة المتحدرة من أكتوبر. إن تحليل التدابير والاختيارات الملموسة التي اتخذها البلاشفة، وعلاقتهم مع باقي الأحزاب السوفييتية والثورية، ودورها وعلاقتها، والأخطاء الإجرامية المقترفة في خضم حرب أهلية بلا رحمة و تطويق رأسمالي- ليسا عذرا ولا تفسيراً لكل شيء- كلها مواضع يتوجب علينا تناولها بصراحة.

لكن التفكير النقدي في سنوات الثورة الأساسية تلك متعذر دون تأكيد الضرورة التاريخية لهذه، وصلاحيّة الثورة الاشتراكية كحل مناسب وعادل لما تواجه البشرية من تحديات. ما زالت الرأسمالية تحمل فظائعها، من استغلال واضطهاد. كما تحمل دوما خطر الهمجية التي سبق أن نبهت إليه روزا لوكسمبورغ في مطلع القرن العشرين. الثورة ضرورة على نحو لا سابق له. لكن بشرط استخلاص الدروس، ليس من نجاحاتها وحسب، بل أيضا من أخطائها و من الجرائم المقترفة أحيانا باسمها. هذا ما تسعى للاضطلاع به النصوص التي ننشر على موقعنا.

تعريب جريدة المناضل-ة